التسامح والتعايش الديني بين الثقافات من خلال التراث الجدلي الإسلامي

Tolerance and religious coexistence between cultures through the Islamic dialectical heritage

د. يوسف العايب

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية. *laib_34@hotmail.com*

تاريخ الاستلام 2021/09/28 تاريخ القبول 2021/10/19

ملخص:

تحاول هذه الورقة العلمية بيان علاقة الجدل الديني في تراثنا بقيم التسامح والتعايش بين الثقافات، من خلال الكلام عن أسباب الجدل خاصة مع أهل الكتاب، وعن أهدافه وغاياته، متخذة من التراث الجدلي في الأندلس مثالا على توضيح فلسفة التسامح من خلال الجدل الإسلامي الكتابي، وما يمكن استفادته من هذه التجربة التراثية في تعزيز قيم التسامح والتعايش مع الآخر في وقتنا الحاضر.

الكلمات المفتاحية: التسامح، التعايش، الثقافات، التراث الإسلامي، الجدل

Abstract:

*This scientific paper attempts to explain the relationship of religious debate in our heritage to the values of tolerance and coexistence between cultures, by talking about the causes of controversy, especially with the ''**People of the Book**'', and about its goals and objectives, taking from the dialectical heritage in **Andalusia** as an example to clarify the philosophy of tolerance through the Islamic biblical debate, and what can be He benefited from this heritage experience in promoting the values of tolerance and coexistence with the other at the present time.*

Keywords*: tolerance, coexistence, cultures, Islamic heritage, dialectic*

مقدمة:

سنة الاختلاف سنة اجتماعية إلهية، **{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }{ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }**[1]، فمنذ أن خلق الله الخلق والناسُ على طبائع وأخلاق وانتماءات شتّة، مختلفون في لغاتهم وألوانهم وأديانهم وأعراقهم، وما الاختلاف الحاصل اليوم في مجتمعاتنا ببدع من الأمر، بل هو استمرار لسنة الله وحكمته في الخلق، لكن عندما يغيب الوعي والفهم والحكمة، وعندما يسود التعصب والنظرة الواحدية الإقصائية، وتتضخم الأناة التي لا ترى في مرآة الوجود إلا نفسها، فإن الاختلاف الذي هو مراد الله وحكمته في الخلق يتحول إلى كابوس يهدّد حياة البشرية واستمرار وجودها، وهذا من خلال ما يتولّد من التعصب والتفرّد من مضاعفات في السلوك السلبي للبشر، فعوضا عن التسامح والتعايش والتعاون والتكافل والتقارب والتعارف، يسود الاقصاء والقمع والتطرف والإرهاب والإكراه.

وهذا الذي تعانيه المجتمعات المعاصرة عموما، والمتعدّدة الثقافات والديانات والأعراق خصوصا، والمجتمعات المسلمة على الوجه الأخص.

من هنا تأتي ضرورة التركيز على ترسيخ قيم التسامح والتعايش في وعي المجتمعات، باعتبارها قيما إنسانية إسلامية وقرآنية، وهذا من خلال نشر ثقافة الحوار وإحيائها في فكر المجتمع باعتبارها من الواجبات الشرعية الاجتماعية التي لا تقل أهمية عن الواجبات الشرعية الفردية.

ولعل هذا الفهم العميق لمفهوم الحوار والتعايش مع الآخر المخالف دينيا ومذهبيا وحتى سياسيا، قد فهمته الأجيال الأولى في الحضارة الإسلامية التي كانت أكثر الحضارات عبر التاريخ تنوعا من الناحية العرقية والدينية واللغوية، فهمته فهما عميقا لم يَبْقَ حبيس العقول والفهوم وإنما تجلى في مواقفها الراقية في التعامل خاصة مع غير المسلم، من خلال التعاون والحوار والمناظرة والجدل، قصد تعميق الفهم بالآخر ومحاولة التقارب والتثاقف، وتماشيا مع سنة اللّه في الخلق.

وعلى ضوء ما سبق يمكن تفسير غزارة التآليف التراثية في علم الجدل والمناظرة، التي تعبر بوضوح عن العلاقة التي كانت تربط المسلمين بغيرهم من أهل الأديان والمذاهب المخالفة، وبغض النظر عن أسباب الجدل والاحتكاك العلمي والمعرفي مع الآخر وعن أهدافه، فإنه وبدون أدنى شك كان وليد الحاجة الاجتماعية إلى التعايش، ومدفوعا بالنصوص الإلهية الحاثة على الحوار والدعوة والبلاغ والتسامح.

ومما سبق تحاول هذه الورقة العلمية بيان علاقة الجدل الديني في تراثنا بقيم التسامح والتعايش بين الثقافات، من خلال الكلام عن أسباب الجدل خاصة مع أهل الكتاب، وعن أهدافه وغاياته، متخذة من التراث الجدلي في الأندلس مثالا على توضيح فلسفة التسامح من خلال الجدل الإسلامي الكتابي، وما يمكن استفادته من هذه التجربة التراثية في تعزيز قيم التسامح والتعايش مع الآخر في وقتنا الحاضر.

أسباب الجدل والمناظرات الدينية مع أهل الكتاب:

لعل الشائع في الأوساط العلمية أن المقصود من الجدل هو المغالبة وأخذ الخصم للاعتراف والاتباع، وأن الدافع له هو الخصومة والتدافع المنازعة[2]، ولعل هذا هو السبب الظاهر والمباشر الذي غطّى على غيره من الأسباب الحقيقية والجوهرية التي لا بدّ من التركيز عليها، والنبش عليها، لأنها هي السبيل المبرِّر لتلك المناظرات والمجادلات الكثيرة التي عرفها التاريخ الإسلامي في تفاعله الإيجابي مع الآخر خاصة أهل الكتاب منهم، فلم تكن المغالبة والانتصار هي الدافع للتفاعل مع الآخر تفاعلا مستمرا ومتكررا، وإنما هناك أسباب أخرى تفرضها الحتميات الاجتماعية والتاريخية والدينية ومستلزمات الدولة المدنية، ومن تلك الأسباب ما يأتي بيانه:

الاختلاف الديني والمذهبي:

اعترف الإسلام باختلاف البشر وأنه يمثل ظاهرة اجتماعية طبيعية، وفي هذا يقول تعالى في القرآن الكريم: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ }[3] بل إن الاختلاف بين البشر سبب مهم من أسباب اجتماعهم وتعارفهم وتبادلهم للمعارف: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا }[4].

وما دام الناس يختلفون في ألوانهم وألسنتهم، وطبائعهم وطُرق معايشهم، وفي البيئة التي يَحْيَون فيها، وفي الثقافة التي يَنْهَلون منها، فإنهم لا شك يختلفون في آرائهم وتفكيرهم ودياناتهم[5].

و قد قرّر اللّه تعالى حقيقة الاختلاف بين البشر في كتابه العزيز، و عدّ ذلك آية من آياته جلّ وعلا، قال تعالى {و من آياته خلق السّموات و الأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إنّ في ذلك آياتٍ للعالمين }[6]

والقران الكريم يؤكد لنا حقيقة قانون الاختلاف إذا لا مجتمع بدون هذا القانون الاجتماعي قال تعالى :{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }[7].

ويؤكد الشيخ طاهر ابن عاشور رحمة اللّه سنة الاختلاف فيقول: ((إنّ جعلهم أمّة واحدة في الدّين منتفية، أي منتف دوامها على الوحدة في الدّين وإنْ كانوا قد وُجدوا في أوّل النشأة متّفقين فلم يلبثوا حتّى طرأ الاختلاف بينَ ابنيْ آدم عليه السّلام لقوله تعالى : { كان النّاس أمّة واحدة }[8] وقوله : { وما كان النّاس إلاّ أمّةً واحدةً فاختلفوا }[9]؛ فعلم أنّ الناس قد اختلفوا فيما مضى فلم يكونوا أمّة واحدة ، ثم لا يدري هل يؤول أمرهم إلى الاتّفاق في الدّين فأعقب ذلك بأنّ الاختلاف دائم بينهم لأنّه من مقتضى ما جُبِلت عليه العقول))[10].

ولقد أدرك علماء الإسلام الأوائل على مختلف تخصصاتهم هذه الحقيقة الإلهية في أبعادها الاجتماعية، فانطلقوا إلى التعامل مع الآخر آخذين بالاعتبار أن ما يقومون به لا يمكن بحال من الأحوال أن يقضي على هذا التنوع والاختلاف، وإنما عملهم عبارة عن مجهود دعوي للاقتراب من الآخر، سواء قبِل ما يدعون إليه أو رفض، ولذا لم يكن الجدل في الإسلام عبارة عن قهر وغصب وصراع، بقدر ما كان يحمل في طياته الأبعاد الحقيقة للحوارات الحضارية بين الشعوب والأمم، لا من أجل دفعها للدخول في الإسلام فقط –وإن كان هذا هو المراد الأول والأسمى- بل ومن أجل القضاء على ما قد يُفضي إليه الاختلاف من تعصب وتزمت قد يؤول في نهاية الأمر إلى عنف وإرهاب.

ضرورة الاحتكاك مع الآخر:

سنة الاختلاف التي رسخت في وعي المسلمين الأوائل على أنها من حكم الله في الخلق، وأنها من السنن الاجتماعية الراسخة في عمق التاريخ إلى منتهى المستقبل البشري، كانت مرتبطة في وعيهم كذلك بسنة اجتماعية أخرى، هي ضرورة الاحتكاك بالآخر والعيش معه، ومخالطته ومعرفته، فقبل أن يقرر "**دوركايم**" نظريته في الاجتماع وضرورة المخالطة الاجتماعية **"الإنسان اجتماعي بطبعه"**، قررها المولى عز وجل في كتابه، مبينا دورها وعلاقتها بسنة التنوع والاختلاف، { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا }[11].

فتاريخ الجدل الاسلامي مع الآخر، وخاصة مع أهل الكتاب لابد وأن يُفسّر على هذا النحو، بعيدا عن محاولة حصره في دائرة المنافحة والمدافعة والدعوة، وإن كانت من بين أسباب نشأته وتطوره، إلا أن سبب المخالطة والاحتكاك لمن الأسباب العميقة في تفسير هذا التراث الثري، كيفلا وهو مطلب قرآني، لا يمكن بدونه التعايش مع الآخر خاصة في مجتمع متعدد الثقافات والديانات مثل المجتمعات الإسلامية في تاريخها المبكر.

فالأندلس على سبيل المثال لا الحصر، كان الاحتكاك فيها مع أهل الكتاب يفوق درجة الوصف، بل كاد يكون امتزاجا[12]، وزاد الاختلاط بين المسلمين بأهل الكتاب خاصة لما ضعفت شوكة الحكام، وصاروا يستعينون بهم لتحقيق بعض مصالحهم مما أوجد اتصالا فكريا، والتحاما جدليا بين المسلمين وأهل الكتاب[13].

التواصل والتفاهم:

إذا كان السبب وراء الجدل الإسلامي الكتابي هو الفهم العميق لسنة الاختلاف الدافع نحو الاحتكاك ومخالطة الآخر، فإن المقصود من المخالطة هو الوصول إلى الفهم الصحيح لطبيعة المخالف من أجل التواصل معه إيجابيا داخل المجتمع والدولة الواحدة.

والمتأمل في النصوص الجدلية لعلماء الإسلام يجد ذلك واضحا في كتاباتهم، فأغلبهم كان يعتمد في مناقشاته على كتبهم أو محادثاتهم ويبنى مواقفه على أساس الاحتكاك بهم، وهذا من أجل الوصول إلى الفهم العميق بطبيعة دينهم وثقافتهم، ومن ثم حسن التعامل معهم سواء دعوة أو نقدا أو تعايشا.

فابن حزم على سبيل المثال الذي كان من كبار علماء الإسلام مجالة لأهل الكتاب والذي ألف موسوعة في الأديان تحت اسم "الفصل في الملل والاهواء والنحل" كان لا يتحدث عن دين اليهود والنصارى عن جهالة ولا عن وراثة، بل كان يتحرى العدل والصدق من أجل الفهم العميق لمن يعيشون معه داخل المجتمع الواحد، ولذا كان –رحمه الله- يجمع ما أمكنه من نسخ التوراة ويطلع عليها بنفسه[14]، كما كان واسع الإطلاع والمعرفة بتاريخ اليهود السياسي والديني[15] وبجغرافية بلادهم[16]، بل كان يسعى بنفسه لسؤال علماء اليهود عن المعاني الغامضة التي لا يفهمها[17]، وأحيانا يدخل

في مناقشات شفوية معهم[18]، يقول رحمه اللّه في مقدمته كتابه –قوله يعبر عن مدى موضوعيته في دراسته للأديان وعن أهدافه التواصلية المبينية على أساس العلم والحقيقة كما هي عليه-: "فإن كثيراً من الناس كتبوا في افتراق الناس في دياناتهم ومقالاتهم كتباً كثيرة جداً فبعض أطال وأسهب وأكثر وهجر واستعمل الأغاليط والشغب فكان ذلك شاغلاً عن الفهم قاطعاً دون العلم، وبعض حذف وقصر وقلل واختصر واضرب عن كثير من قوي معارضات أصحاب المقالات فكان في ذلك غير منصف لنفسه في أن يرضى لها بالغبن في الإبانة وظالماً لخصمه في أن لم يوفه حق اعتراضه وباخساً حق من قرأ كتابه إذ لم يغنه عن غيره وكلهم إلا تحلة القسم عقد كلامه تعقيداً يتعذر فهمه على كثير من أهل الفهم وحلق على المعاني من بعد حتى صار ينسي آخر كلامه أوله وأكثر هذا منهم ستائر دون فساد معانيهم فكان هذا منهم غير محمود في عاجله وآجله .قال أبو محمد رضي اللّه عنه فجمعنا كتابنا هذا مع استخارتنا اللّه عز وجل في جمعه وقصدنا به قصد إيراد البراهين المنتجة عن المقدمات الحسية أو الراجعة إلى الحس من قرب أو من بعد على حسب قيام البراهين التي لا تخون أصلاً مخرجها إلى ما أخرجت له وأن لا يصح منه إلا ما صححت البراهين المذكورة فقط. إذ ليس الحق إلا ذلك وبالغنا في بيان اللفظ وترك التعقيد راجين من اللّه تعالى على ذلك الأجر الجزيل وهو تعالى ولي من تولاه ومعطي من استعطاه لا إله إلا هو وحسبنا اللّه ونعم الوكيل"[19].

وقريبا من هذا نجده عند الشهرستاني الذي صرح في مقدمة كتابه ان الغرض منه هو العبرة والاستبصار، وهذا بعدما اطلع واقترب من ديانات وثقافات المخالفين، فيقول: " فلما وفقني اللّه تعالى لمطالعة مقالات أهل العالم من أرباب الديانات والملل واهل الأهواء والنح، والوقوف على مصادرها ومواردها، واقتناص أوانسها وشواردها، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون، عبرة لمن استبصر، واستبصارا لمن اعتبر...."[20].

أما البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" فإنه أراد أن يطوّر معرفة المسلمين ببقية الأديان، وقامت دراسته على عمل ميداني قوامه المعاينة والحكاية والمقارنة، وكان عمله بمثابة بحث استطلاعي مهدّ لانتشار الإسلام في الهند. انتهج في الكتاب منهجًا جنّبه التعصب والتعميم، ولذا نجده يقول عن منهجه في كتابه: "وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتّى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحق"[21].

الدعوة إلى اللّه:

المحرك الأساسي للمجادلات الإسلامية مع أهل الكتاب، والذي يركز عليه جل الباحثين هو الدعوة إلى اللّه، وهو بدون شكّ من الأسباب المباشرة والأساسية للتعامل مع الآخر، وبغض النظر عن أولويته ومكانته من جملة الأسباب، يعتبر هذا المحرك دافعا

في كل الأحوال للتعامل مع الآخر، ليس تعاملا اعتباطيا، بل تعاملا قرآنيا آخذا في الحسبان مبادئ الحسنى والبرِّ وخفض الجناح التي جاءت الآيات القرآنية آمرة بها من يتصدر التعامل والاحتكاك مع الآخر، "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"[22]، "وجادلهم بالتي هي أحسن"[23]، وفي آية أخرى يقول تعالى: "لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن اللّه يحب المقسطين"[24].

إن أهم الدوافع التي جعلت المسلمين يهتمون بهذا العلم تأليفا وكتابة ومناظرة، هو التراث المرجعي نفسه، فالقرآن الكريم فيه الكثير من الآي التي تناولت في موضوعاتها أصحاب العقائد المختلفة، من يهود ونصارى ووثنيين على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم، وبينت مواضع الانحراف العقدي في هذه الديانات، كما تناولتها بالنقد والنقاش العقلي والمنطقي، قصد الوصول إلى فساد هذه الديانات ودخول الانحراف والضلال إليها على يد أتباعها.

وبعيدا عن التقييم الإيجابي أو السلبي للتجربة الجدلية الإسلامية، ومدى التزامها بآداب الجدل والحوار الفكري الهادئ الذي سطّر القرآن خطوطه العريضة، فإن الدعوة إلى اللّه كانت محركا في كل الأحوال إلى ربط جسور التواصل مع الآخر والتحاور معه عقديا وفكريا، ولولا هذا الدافع الدعوي لما وجدنا في تراثنا الجدلي المفسر والمحدث والمتكلم والفيلسوف والفقيه السني منهم والشيعي والظاهري كلهم يمارسون الجدل اعتقادا منهم بأنه وظيفة دعوية تقربهم من الآخر قصد فهمه ومن ثم دعوته للدين الجديد إن أراد وطابت به نفسه وإلا فلا إكراه في الدين.

البحث عن القواعد والأسس المشتركة:

من الأسباب الخفية والأساسية للجدل الإسلامي الكتابي البحث عما يحقق للمجتمع الإسلامي المتعدد الثقافات والديانات والإثنيات والأعراق الاستقرار والأمن في جميع المجالات، ولذا كان الجدل يروم التعايش مع الآخر مهما اشتد الخلاف معه، لأنه السبيل الوحيد لتحقيق الاستقرار الذي يضمن للدولة الإسلامية قوتها وتماسكها، وهو مطلب قرآني قبل ان يكون هدفا دينيا أو سياسيا، يقول تعالى في سورة الممتحنة: " **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"**[25]، كما يروم الجدل من أجل تحقيق الاستقرار التعاون مع الآخر، لأنه من أهم الأسس المشتركة في المجتمع الذي يعرف التعدد، ولقد شهد المجتمع المسلم الكثير من صور التعاون بين المسلمين وغيرهم في ظل المجتمع الواحد، وكان منطلق المسلمين قوله تعالى: " **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**[26].

فلم يكن الجدل وجها فقط لإبطال العقائد وتقرير غيرها، بل كان وسيلة للتقرب من الآخر، بوجه أو بآخر، كان ذلك مقصودا أو غير مقصود، ولولا الجدل لما احتك المسلمون بغيرهم، ولما تعرفوا عليهم، ولما تعايشوا وتعاونوا، المتأمل في هذه الشريعة يجد أن من سماتها الواضحة أنها دين الجماعة والتعاون والعمل المشترك الذي في مصلحة الإنسان عموماً، فكم من الآيات التي تذكّر الإنسان بأصله الواحد وتاريخه الطويل، وكم من النصوص التي تأمر المسلمين وغيرهم بالتعاون على الخير والصلاح وتنهاهم عما يضرهم ويؤذيهم، وكم في الوحي من تحذير من الظلم وحث الإنسان على الإحسان إلى الإنسان وغير الإنسان، وحديث النبي –صلى اللّه عليه وسلم- أبلغ حجة في ضرورة التعاون مع أيٍّ كان من أجل المنفعة الإنسانية واستقرار المجتمع وتوحده وقوته، فيقول –عليه الصلاة والسلام-: "لقد شهدت في دار عبد اللّه بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"[27].

قال ابن القيم – رحمه اللّه – وهو أحد المجادلين المسلمين وصاحب كتاب "هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى"[28] في تعليقه على صلح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع أهل مكة في الحديبية: (إن المشركين وأهل الفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات اللّه تعالى، أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه..."[29]

الامتثال للقواعد الشرعية والنصوص الدينية:

ومن اهم الأسباب الدافعة للجدل الديني مع غير المسلمين هي النصوص الدينية المرجعية المقعدة لضوابط العلاقة مع الآخر، فالمسلمون الأوائل وجدوا أنفسهم أمام جملة من النصوص الشرعية التي لا تحث على مجرد الاحتكاك بالآخر، بل على قبوله كفرد من المجتمع قبل كل شيء، فالقرآن هو الحاث على **التعارف** :" ياأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا"[30]، وعلى **المخالطة** " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ"[31] وعلى **التثاقف**: " وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"[32] وعلى **الدعوة**: " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ "[33]، وعلى **التعايش**: " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"[34].

ثانيا: أهداف الجدل مع أهل الكتاب:

قد يبدو لأول وهلة أن الدعوة على اللّه والدفاع عن الإسلام وإقامة الحجة على المخالف هي الهدف الأول والأخير من الجدل الحوار مع الآخر، لكن المتأمل في التاريخ الجدلي الإسلامي مع الآخر، يجد أهدافا أخرى كثيرة، منها ما كان مقصودا لذاته، ومنها ما كان مقصودا بطرق غير مباشرة، وأهم تلك الاهداف هو تحقيق جملة من القيم التعارفية والتواصلية والتعاونية والتسامحية والتعايشية والدعوية، وقبل كل هذا سعي لتحقيق قيم إنسانية.

1- تحقيق القيم التعارفية:

والتفاهم بين الأديان عن طريق الحوار له هدف آخر مهم وهو تحقيق الأهداف المشتركة للأديان ، قد تختلف الأديان حول تحديد معنى السعادة وطبيعتها وسبل تحقيقها لارتباط هذا كله بالمضمون العقدي لكل دين وبالأسلوب الديني الذي اختطه كل دين لأتباعه لتحقيق هذا المضمون العقدي حيث اتخذت بعض الأديان منهجًا تشريعيًا بينما التزمت بعض الأديان الأخرى بمنهج أخلاقي بعيد عن التكاليف الشرعية ، واعتمدت بعض الأديان الأخرى على الأسلوب أو المنهج الزهدي التصوفي . وتختلف الأديان أيضًا في نظرتها إلى مجال السعادة الإنسانية فبعض الأديان تقتصر على مطلب السعادة الدنيوي ، ولا تعطي اهتماماً للسعادة الأخروية ، وبعضها يقول بالسعادة الأخروية دون الدنيوية ، وبعضها يجمع بين سعادة الدين والدنيا

2- تحقيق القيم التواصلية:

وأزعم ان الجدل الديني من الديانات السماوية الثلاث شكل سمة من سمات الحوار الحضاري الذي عرفته أمصار إسلامية كثيرة مثل العراق وصقلية والشام والاندلس. وهو حوار حضاري انتج العقلية الإسلامية المتفتحة، وأدى إلى لقاء الثقافات المختلفة على صعيد واحد، وأدى إلى تلاقح العقول.

3- تحقيق القيم التعاونية:

الإنسان مهما اختلفت ديانته يواجه واقعًا واحدًا ، وظروفًا معيشية واحدة ، ومشكلات حيوية واحدة . وهنا تبرز أهمية الحوار بين الأديان وبخاصة بعد أن توحدت مشكلات الإنسان وتشابهت في كل مكان ، وأصبح للأديان مواقفها السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية ولا تعيش في عزلة عن مشكلات إنسانها وقضاياه العصرية . فالإنسانية الآن تشترك في المشكلات البيئية والاجتماعية مثل الجهل والفقر والمرض[35]. وفي القضايا السياسية والاقتصادية والفكرية وتحاول جاهدة أن تمد المؤمن بها بتحليلات لأسباب وقوع هذه المشكلات وبرؤى حول أسلوب معالجتها ، ولا شك في أن الأديان تستطيع أن تعين المؤمنين بها وتستغل معرفتها المختلفة وخبراتها المتنوعة في تقديم الحلول للقضايا المشتركة لتحقيق النجاح والفلاح والسعادة للإنسانية جمعاء

وبالإضافة إلى هذا التعاون المثمر بين الأديان من خلال الحوار الفعال بينها لمصلحة المجتمعات الإنسانية يمكن للحوار أيضًا أن يسهم في مواجهة التطرف الديني وهي مشكلة عامة تواجه كل الأديان الحية . فقد انتشرت ظاهرة التطرف الديني وما يصاحبها من تشدد وتزمت وإرهاب وعنف في كل المجتمعات الإنسانية تقريبًا . وهي مشكلة لها بعدان : بعد داخلي ينتج عنه توزع أهل الدين الواحد إلى فئتين على الأقل : فئة متمسكة بالدين في نظامه الأساس الأصل وفئة متطرفة خارجة على هذا النظام ومنحرفة عنه بتفسيراتها المتشددة لتعاليم الدين والذي ينعكس على علاقاتها ومعاملاتها مع الفئة الأولى . أما البعد الخارجي فهو يتمثل في اتساع دائرة التطرف الديني لتصبح ذات تأثير على علاقات الأديان بعضها ببعض ، وفي البيئة المتعددة ذات الأديان الأخرى داخل المجتمع الواحد.

4- تحقيق قيم التسامح والتعايش:

أهداف الجدل الديني بين أرباب الأديان هو الوصول الى صيغة من التعايش، ونشر السلام، والقبول بالآخر، والقبول باختلاف الثقافات، والرقي بالإنسانية، وحفظ الحقوق الكونية، والبعد عن التشدد والتطرف والرفض لمجرد الرفض، وأخيراً البعد عن الحروب والقتل والتدمير باسم الدين.

والحق ان الحوار الإسلامي - اليهودي - النصراني أو ما يُعرف الآن بحوار الأديان هو ما اختاره المسلمون الأوائل كطريق للتعايش السلمي، ومن ثمَّ كطريق للدعوة الدينية، دعوة قائمة على الإقناع، وهو طريق سلكه المتحاورون كمدخل حيوي لتحاور الثقافات المختلفة، وهو بالتالي ما ولَّد حضارة إسلامية، تعتبر بحق أول حضارة إنسانية أرست مبادئ ما نطلق عليه اليوم اسم: (حوار الحضارات)[36].

5- تحقيق القيم الإنسانية:

وأزعم ان الجدل الديني من الديانات السماوية الثلاث شكل سمة من سمات الحوار الحضاري الذي عرفته أمصار إسلامية كثيرة مثل العراق وصقلية والشام والاندلس. وهو حوار حضاري انتج العقلية الإسلامية المتفتحة، وأدى إلى لقاء الثقافات المختلفة على صعيد واحد، وأدى إلى تلاقح العقول[37].

ثالثا: فلسفة التسامح من خلال التراث الجدلي الأندلسي:

لقد كانت أرض الأندلس أحسن مثال على إنجاز تاريخي يصعب وجوده في الوقت الحاضر؛ فكانت أرض التعايش والتّسامح وأرض الحرّيّات، وكانت نموذجا لإقرار الاختلاف. فقد اتبع المسلمون مبدأ حرّيّة المعتقد الذي دعا إليه الإسلام، فاتسمت البيئة الأندلسيّة بالتّنوّع والتّعدّد؛ حيث تشكّلت من أجناس وأعراق صهرها الإسلام في بوتقته غير مفرّق بين سكّانها الأصليين المسيحيين من أصل قوطي أو روماني والوافدين عليها من عرب وبربر والمتساكنين اليهود[38].

لقد لبث النّصارى واليهود الإسبان الذين يعيشون في القواعد والثّغور الإسلاميّة عصورا، يتمتّعون في ظلّ الحكم الإسلامي بضروب الرّعاية والتّسامح، وكانت الحكومات الأندلسيّة، حتّى في أزهى عصورها، تحافظ على مبدأ الحرّيّة التي اتّبعت إزاءهم منذ الفتح وتعاملهم برفق، وتحترم شعائرهم الدّينيّة وتقاليدهم القوميّة، وتجتنب أيّة محاولة لإرغامهم اعتناق الإسلام، وهكذا حافظ الذّمّيّون في الأندلس على عاداتهم وتقاليدهم، واعتلوا مناصب عالية ووظائف سامية في الدّولة (الجراري، 2003، ص 48). في حين أنّهم كانوا يعانون من اضطهاد سلطة الكنيسة لهم قبيل الفتح الإسلامي[39].

إنّ من أبرز سمات الحرية في الأندلس الجدل الديني بين معتنقي الديانات السماوية الثلاثة؛ فقد كان نبراس الرقي المعرفي وقبول الآخر، وقد كان الحوار الإسلامي اليهودي النصراني أو ما يعرف الآن بحوار الأديان هو ما اختاره المسلمون الأوائل في الأندلس طريقا للتعايش وتكريسا لمبدأ الحريّة، وقد شكلت النقاشات بين فقهاء الإسلام ورهبان النصارى وأحبار اليهود مقدمة ضرورية لمزيد من التعرف على الآخر، وقد تراوحت هذه المجادلات الدينية بين مجادلات اتسمت بطابع الهدوء والرصانة واعتمدت مهذّب الكلام، وبين مجادلات طغى فيها الشتم والإفصاح عن التباغض، ومن أبرز مجادلي العصر الوسيط في الأندلس ابن حزم أبو محمد علي بن سعيد (ت456)[40]. وأبو جعفر أحمد بن عبد اللّه الخزرجي صاحب كتاب مقامع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان"[41]، وأمّا من اليهود، فقد برز إسماعيل بن النغريلة اليهودي (ت 448) وموسى بن ميمون (ت 603)، أمّا المسيحيون، فقد كان جلّ قساوستهم ورهبانهم يجادلون، ومن أبرزهم رامون مارتي الذي يصفه مناظره ابن رشيق بقوله : "كان فصيح اللسان مدركا للكلام معتدلا في المناظرة ...ولم أنفصل إلاّ وهم كالمسلمين بانقطاع شبهتهم"[42]

رابعا: سلبيات التراث الجدلي وما يمكن تجاوزه في التجربة الجدلية القديمة:

على الرغم من الإيجابيات الكثيرة للجدل الديني خاصة من أهل الكتاب، إلا أن هذا التراث الجدلي فيه سلبيات أخرى لا بد من تلافيها اليوم في حواراتنا مع الآخر، من تلك السلبيات يمكن ذكر الآتي:

- **الحدة في النقاش:**

مما يمكن أن يعاب على حركة الجدل الديني الإسلامي مع أهل الكتاب خاصة و مع غيرهم من أهل الملل والنحل المختلفة هو حدة أسلوب بعض علماء الإسلام في نقاشهم مع مخالفيهم، وقد يكون هذا راجع إلى طبيعة أساليب النقاش السائدة آنذاك، وقد يكون مرده إلى مجاراة خصوم الإسلام في تهجماتهم على الإسلام وطعوناتهم التي تتسم بدورها بالحدة وقساوة الكلمة والأسلوب.

وكمثال على ذلك رد بن حزم على بن النغريلة اليهودي الذي ألف في الطعن في القرآن الكريم ووجه جملة من الشبهات حول الإسلام، ومما جاء في رده عليه: "فكان أول

ما اعترض به هذا الزنديق المستتر باليهودية، ...قال هذا المائق الجاهل، ....قال هذا الزنديق الجاهل، .....لو كان لهذا الجاهل الوقّاح، ....[43]

- **انتهاج أسلوب التهجم والسباب:**

وهذه الميزة وإن كانت نادرة ومحصورة في بعض المؤلفات، إلا أن لها تأثير كبير في توجيه الكثير من العقول لما لهؤلاء العلماء من قيمة ومكانة علمية في الأوساط الإسلامية، وعلى سبيل المثال ما نجده في كتاب " هداية الحيارة في أجوبة اليهود والنصارى" لابن القيم الجوزية، والذي فيه تحامل كبير على أهل الملل والنحل خاصة أهل الكتاب منهم، وهذا مناقض لمنهج القرآن الكريم في التعامل مع الآخر، ومنهج المؤلف في حد ذاته الذي عرف بالكتابة في الأخلاق والزهد والتزكية.

ومما جاء في كاتبه عن المخالفين قوله: "وكان أهل الكتاب نوعان: مغضوب عليهم، وضالون[44]، ويقدم تحليله لذلك بنفس الروح: "فالأمة الغضبية هم اليهود: أهل الكذب والبهت والغدر والمكر والحيل، قتلة الأنبياء وأكلة السحت –وهو الربا والرشا– أخبث الأمم طوية، وأرداهم سجية وأبعدهم من الرحمة، وأقربهم من النقمة، عادتهم البغضاء، وديدنهم العداوة والشحناء، بيت السحر والكذب والحيل، لا يرون لمن خالفهم في كفرهم وتكذيبهم من الأنبياء حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، ولا لمن وافقهم عندهم حق ولا شفقة، ولا لمن شاركهم عندهم عدل ولا نصفة، ولا لمن خلطهم طمأنينة ولا أمنة، ولا لمن استعملهم عندهم نصيحة، بل أخبثهم بيهودي على الحقيقة، أضيق الخلق صدوراً، وأظلمهم بيوتاً وأنتنهم أفنية، وأوحشهم سجية، تحيتهم لعنة، ولقاؤهم طيرة، شعارهم الغضب، ودثارهم المقت[45].

والصنف الثاني: المثلثة أمة الضلال وعباد الصليب، الذين سبوا اللّه الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر ، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد، ولم يجعلوه أكبر من كل شيء، بل قالوا فيه ما تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، فقل ما شئت في طائفة أصل عقيدتها: إن اللّه ثالث ثلاثة وان مريم صاحبته وان المسيح ابنه، وانه نزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن الصاحبة، وجرى له ما جرى إلى أن قتل ومات ودفن فدينها عبادة الصلبان.

فدينهم شرب الخمور وأكل الخنزير، وترك الختان، والتعبد بالنجاسات، واستباحة كل خبيث من الفيل إلى البعوضة، والحلال ما حلله القس، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، وهو الذي يغفر لهم الذنوب، وينجيهم من عذاب السعير[46].

إذا كال كل هذه الصفات بأهل الكتاب فالجرعة تزداد مع غيرهم[47]:

فهذا حال من له كتاب، وأما من لا كتاب له: فهو بين عابد أوثان ، وعابد نيران، وعابد شيطان، وصابئ حيران ، يجمعهم الشرك، وتكذيب الرسل، وتعطيل الشرائع،

وإنكار المعاد وحشر الأجساد، لا يدينون للخالق بدين، ولا يعبدونه مع العابدين، ولا يوحدونه مع الموحدين[48].

خاتمة:

لقد كانت التعدّدية في الأندلس (تعدّد الأديان وتعدّد الأجناس) الصورة الحيّة لواقع الحرّيات الدينية، ولم تكن تتوقف عند الإقرار بحق الآخر في الوجود، بل تتجاوز ذلك إلى احترام حريته في إقامة شعائره واختيار معتقده بلا تضييق ولا ممارسة لأي ضرب من ضروب الضغط المادي والمعنوي، وهي حالة نادرة خاصة في المجتمعات القروسطية التي تقف على خطوط المواجهة الجهادية، كما هو الشأن في الأندلس.

إن الجدل الإسلامي بمختلف صوره ومقاصده كان سببا في الاحتكاك بمختلف الأديان والثقافات والأعراق، ولم يتسبب أبدا في الصراعات العرقية والدينية المفضية إلى الحروب الدينية والتصفيات الجسدية، بل على العكس من ذلك زادت المجادلات الكلامية، والمناظرات الدينية في تنمية أجواء الحوار والتعايش والتعارف والتقارب.

وعلى الرغم من بعض سلبيات الجدل الإسلامي التي أفضتها ظروف المرحلة أو البيئة، إلا أن مرحلة المجادلات الإسلامية قد ساهمت فعلا في رصّ العلاقات المختلفة بين أبناء الحضارة الإسلامية من مختلف أطيافها وانتماءاتها الدينية والعرقية.

الهوامش والإحالات

---

[1] سورة هود: 118-119

[2] هذا ما يمكن فهمه غلطا من التعريفات الإسلامية للجدل، مثل تعريف الباجي: "تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه " (" المنهاج في ترتيب الحجاج " أبو الوليد الباجي ص 11)، أو تعريف الجويني: " إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة" (انظر الكافية في الجدل للجويني ص 21 .) ...

[3] سورة هود ، 118-119 .

[4] سورة الحجرات ، 13

[5] أبي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، التنبيه على الأسباب التي أوجبت اختلاف المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم؛ تح: أحمد حسن كحيل، حمزة عبدالله النشرتي، دار المريخ: الرياض، ط (2)، 1982، ص: 3

[6] سورة الروم الآية: 22.

[7] سورة البقرة: 213

[8] سورة البقرة : 213

[9] سورة يونس : 19

[10] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج: 7، ص: 215

[11] سورة الحجرات ، 13

[12] محمد أبو زهرة، ابن حزم: حياته عصره آراؤه وفقهه، ص: 104

[13] خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي، الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس، ص: 104

[14] ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق: محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، شركة مكتبات عكاظ، جدة ، ط1، 1982م ج: 1،، ج: 1، ص: 121.

[15] المصدر نفسه، 193/1، 197، 209.

[16] المصدر نفسه ، 1/ 103، 104.

[17] المصدر نفسه ، 141/1، 142.

[18] المصدر نفسه ، 152/1.

19 ابن حزم، ص: 11.

[20] الشهرستاني، الملل والنحل، ج: 1، ص: 1-2.

[21] البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة، ص: 116.

[22] سورة العنكبوت، 46.

[23] سورة النحل، 125.

[24] سورة الممتحنة، 08.

[25] سورة الممتحنة: 08.

[26] سورة المائدة: 02.

[27] أخرجه الإمام أحمد(1676) ، وهو في سيرة ابن هشام(1/134) ، وهذا الحلف شهده رسول الله قبل الإسلام مع مجموعة من المشركين، تحالفوا فيه على مقاومة الظلم ونصرة المظلوم.

28 ابن القيم، هداية الحيارة في اجوبة اليهود والنصارى، ت: عثمان جمعة ضميرية، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، 1429

[29] ابن القيم، زاد المعاد ج: 3 ص: 269

[30] سورة الحجرات: 13.

[31] سورة المائدة: 05.

[32] سورة العنكبوت: 46.

[33] سورة آل عمران: 64.

[34] سورة الممتحنة: 08.

35 محمود حمدي زقزوق ، القرن الجديد وخيار الحوار الحضاري ، الأهرام 23 / 8 / 1999م

[36] عبدالله إبراهيم العسكر، حوار الأديان، مقال إلكتروني: http://www.alriyadh.com/336843

[37] أحمد جاب الله، الإسلام والحوار الديني، المفهوم، الأهداف، الضوابط، المؤتمر الإسلامي العالمي للحوار، ص: 501- 503.

[38] قرصاف عمار قراجة، الحوار الدّيني في الأندلس بين التـأسيس القرآني والفعل التاريخي، 2003، ص: 41

[39] قرصاف عمار قراجة، نفس المرجع، ص: 43.

[40] ابن حزم، 1981، ج 3.

[41] بنشريفة، محمد. (1995، جوان). حول التسامح الديني. ضمن مجلة دراسات أندلسية. العدد 14، 1995، جوان، ص 26

[42] قرصاف عمار قراجة، نفس المرجع، ص: 26.

[43] ابن حزم، الرد على بن النغريلة، ص: 47

[44] شمس الدين ابن القيم الجوزية : هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى تقديم و تعليق د أحمد حجازي السقا دار الريان للتراث 1979 ص: 31.

[45] المرجع نفسه ص 34 و ص 35

[46] المرجع نفسه ص 35

[47] شافية صديق، من اجل تشريح حقيقي لتراث الجدل الديني عند المسلمين، مجلة مخبر الشريعة، جامعة الجزائر 1،

[48] ابن القيم، المرجع السابق، ص 35